

الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستخليك^(١) ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ وإني أوصيك بخلال ثلاث: لا تفشين له سراً، ولا تجرين عليه كذباً، ولا تغتابن عنده أحداً. قال الشعبي رحمه الله تعالى: قلت لابن عباس: كل واحدة منهن خير من ألف. فقال إي والله ومن عشرة آلاف. وقال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان تأنيساً، فزده إجلالاً، وإذا جعلك أخاً، فاجعله أباً، وإذا زادك إحساناً، فزده فعل العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس، فأخذوا في الثناء عليه، فعليك بالدعاء له ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة. وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك، ولا تتغير منه إذا أقصاك.

وروي أن بعض الملوك استصحب حكيماً فقال له: أصحبك على ثلاث خصال: قال: وما هن؟ قال: لا تهتك لي سترأ، ولا تشتم لي عرضاً، ولا تقبل في قول قاتل حتى تستشيرني. قال: هذا لك، فما ذا لي عليك؟ قال: لا أفشي لك سراً، ولا أذكر عنك نصيحة، ولا أؤثر^(٢) عليك أحداً. قال: نعمَ الصاحب للمستصحب أنت. وقال بزرجمهر: إذا خدمت ملكاً من الملوك فلا تُطعهُ في معصية خالكك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه. وقالوا: اصحب الملوك بالهيئة لهم والوقار، لأنهم إنما احتجبوا عن الناس لقيام الهيئة، وإن طال أنسك بهم تزدد غماً. وقالوا: علّم السلطان، وكأنك تتعلم منه، وأشر عليه وكأنك تستشير، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك، ويثق بك، فإياك والدخول بينه وبين بطانته فإنك لا تدري متى يتغير منك، فيكونوا عوناً عليك. وإياك أن تعادي من إذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل. وفي الأمثال القديمة: احذروا زمارة المخدرة، وفيه قيل: ^(٣)

ليس الشفيعُ الذي يأتيك مئزراً مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد: إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحق.

وأما ما جاء في التحذير من صحبة السلطان: فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهي عن صحبة السلطان. قال في كتاب كلبلة ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل: صحبة السلطان، واثتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة. وكان يقال: قد خاطر بنفسه من ركب البحر، وأعظم منه خطراً من صحب السلطان. وكان بعض الحكماء يقول: أحقُّ الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان، فإن من صحب السلطان بغير عقل، فقد لبس شعار الغرور.

(١) يستخليك: يختلي معك.

(٢) أؤثر: أفضّل.

(٣) هذا البيت ينسب للفرزدق في غمز من ابن الزبير.

وفي حكم الهند: صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر. وقيل للعتابي: لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأنني رأيتُه يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويرمي من السور في غير شيء، ولا أدري أي الرجلين أكون. وقال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ويبطش بطش الأسد. وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: يا ميمون احفظ عني أربعاً: لا تصحب السلطان، وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلو بامرأة وإن أقرأها القرآن، ولا تصل من قطع رجمه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غداً، وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل، والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد
ومثل من صحب السلطان، ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطاً مائلاً، فاعتمد عليه ليقمه فخر الحائط عليه
فأهلكه، قال الشاعر:

ومعاشر السلطان شبه سفينة في البحر ترجف دائماً من خوفه
إن أدخلت من مائه في جوفها يغتالها مع مائتها في جوفه

وفي كتاب كليله ودمنة: لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك، فإنهم لا عهد لهم، ولا وفاء ولا قريب ولا حميم، ولا يرغبون فيك، إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك، فإذا قضوا حاجاتهم منك تركوك ورفضوك. ولا ود للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يغفر. وقال الحكماء: صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف. وقال محمد بن واسع: والله لَسَفُ الترابِ وَلَقَضْمُ العظمِ خير من الدنو من أبواب السلاطين. وقال محمد بن السماك: الذباب على العذرة^(١) خير من العابر على أبواب الملوك. وقيل: من صحب السلطان قبل أن يتأدب فقد غرر بنفسه. وقال ابن المعتز: من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة، وعنه: إذا زادك السلطان تأنيساً وإكراماً فزده تهيباً واحتشاماً. وقال أبو علي الصغاني: إياك والملوك فإن من والاهم أخذوا ماله، ومن عاداهم أخذوا رأسه. وقيل: مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة: عقل، وصبر ومال. وتحت مكتوبة: كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان. وقال حسان بن ربيع الحميري: لا تثقن بالملك فإنه ملول، ولا بالمرأة فإنها خثون، ولا بالدابة فإنها شرود. وقال عبيد بن عمير: ما ازداد رجل من السلطان قرباً، إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت أتباعه، إلا كثرت شياطينه، ولا كثرت ماله إلا كثرت حسابته. وقال ابن المبارك رحمه الله:

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضىوا في العيش بالدون^(٢)
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما است غنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم في ولاة بني مروان:

(١) العذرة: القذارة من الغائط.

(٢) بالدون: بالقليل الذليل.

إذا ما قطعتم ليلكم بمُدامكم وأفنيتموا أيامكم بمنام
فَمَنْ ذا الذي يغشاكم في ملمة^(١) وَمَنْ ذا الذي يغشاكم بسلام
رضيتم من الدنيا بأيسر بُلغة بلثم غلام أو بشرب مدام
ولم تعلموا أن اللسان موكل بمدح كرام أو بئذم لثام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا: إن الملوك يستعظمون في الثواب ردَّ الجواب، ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب. وقيل: شر الملوك من أَمَنه الجريء، وخافه البريء. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.